ندوة: الشباب في الأردن والمشاركة السياسية

أدار الندوة: هشام البستاني
المشاركون: ناصر لافي، فراس محادين، بكر الأخرس

المشاركة الشبابية: الحكومة والأحزاب

هشام: نحن في وضع لا نُحسد عليه: احتلال أميركي في العراق، واحتلال قديم/جديد في فلسطين، ومشروعُ هيمنة صهيوني في منطقتنا العربية. فكيف نتعاطى مع هذا الوضع؟

فراس: باستثناء قوة فاعلة على الساحة منذ حوالي عشر سنوات، هي القوة الإسلامية، فإنّ الحالة العامة للحركات السياسية في الشارع متردِّية. وانعكاسُ ذلك واضح على مستوى الشباب والحركات الطلابية والشبابية في المنطقة.

وفي ما يتعلَّق بالأردن تحديدًا، تشير الإحصاءات إلى أنّ المجتمع عندنا شابٌّ في معظمه، في حين أنَّ وجود القوى السياسية في صفوفه بالغُ الضعف، باستثناء الحالة المذكورة أعلاه. فلقد جُرِّدتِ القوى السياسيةُ من دورها في الشارع، ثم جُرِّدتْ من دورها في الجامعات والمدارس، وتمَّ ذلك في سياقٍ تاريخي لا مجال للدخول فيه هنا.

لكنّ التردّي في الحالة العامة والممارسة المنظّمة لا ينطبق على المزاج. فعند المنعطفات الحقيقية التي تمسّ الضميرَ أو المزاجَ العامّ، تَظْهرالتحركاتُ العفوية على الساحة قليلاً، لكنّها تتراجع بسبب غياب حركات سياسية تستثمر تلك اللحظات.

عندما نتحدَّث عن التردِّي، إذن، فإنّنا نتحدّث عن ممارسةٍ سيئة، أو جمودٍ سياسي، وعن تغييبٍ للثقافة والهوية، بل ولحرية الخيار السياسي أيضًا. وتتجلّى هذه الحالة في بنية النظام كلِّه: فرئيسُ مجلس الوزراء معيَّن، ومجلسُ الوزراء معيَّن، ومجلسُ النوّاب نصفُه معيَّن، وفي الجامعات مجالسُ طلبةٍ نصفُها معيَّن ورئيسُها معيَّن! ولذا يَشْعر الشبابُ الأردني بعجزه عن تقرير مصيره، لأنَّ القوانين نفسَها معوِّقة. وللنهوض بأيّ حركة، فإنَّه يجب النضالُ باتجاه تغيير القوانين قبل أن نتحدّث عن إعادة هيكلة القوى السياسية والبحث عن أطر جديدة. إنَّ الإشكال في الأردن يبدأ من **الدولة الأمنية** القابضة على كلّ مفاتيح الحياة، والمتحكِّمة بالمؤسسات. بل إنّها هي المؤسسات، والجامعات، والأحزاب، وهيئاتُ المجتمع المدني.

هشام: إذنْ، ليس هناك خللٌ بنيوي في طبيعة شباب اليوم، وإنما ضعفٌ في آليّات الممارسة والتعبير عن النفس. فهل تتفق يا ناصر مع هذا الطرح؟ وقد أشار فراس إلى تميّز الحال الإسلامية في الأردن والمنطقة، فربما عَرَّجْتَ قليلاً على رؤيتك إلى الحركة الاسلامية وتعاطيها مع الشباب.

ناصر: لن أزيدَ على أنّ المنحى المنحدرَ للأمّة، واستلابَ إرادتها، والاستبدادَ الذي يتحكّم فيها، تَنْعكس سلبًا على دور الشباب في الفعل السياسي. وهذا يُمْكن إرجاعُه إلى غياب منهجيةٍ تغييرٍ حقيقي؛ ذلك لأنّ الشباب في طبيعة تكوينهم يؤمنون بالتغيير ذي المعنى، ولا يَجِدون أنفسَهم في معمعانِ أيِّ تغييرٍ شكلي.

أما في ما يتعلّق بتعاطي الحركة الإسلامية مع الشباب، فالإسلاميون جزءٌ من المجتمع، وكثيرٌ من إيجابيات المجتمع وسلبياته موجود في أطرهم التنظيمية نفسها. إلاّ أنّ تمسُّكَهم بأنموذج مؤسَّسي، يتّسم بالشورى والتداول، يعطي فرصًا متزايدةً للجيل الشابّ.

هشام: بَكْر، أنتَ أحدُ النشطاء الشبابيين في مخيَّم البقعة، ما هي رؤيتك إلى أزمة المشاركة الشبابية في العمل السياسي؟

بكر: إنّ خيبة أمل الشباب في كثيرٍ ممَّن تصدَّروا الصفوفَ الأولى من العمل الوطني، ولكنّهم أساءوا إلى الفكرة الجميلة التي حَمَلوها، تَرَكَتْ شعورًا باللاجدوى عند بعض الشباب. فبعضُ أولئك المتصدّرين انكفأوا، أو صَبَّ أداؤهم في فلك الأجهزة الأمنية، التي نجحتْ في عزل الكثيرين من ممارسي العمل العامّ والتضييق عليهم بالاعتقالات والضغوط المختلفة.

هنا يجب أنّ نتطرَّق إلى مواصفات الشخص الذي يمكن أن يشتغل في العمل السياسي. فهناك شخصية نمطية، وأخرى نموذجية. الأولى تَرْضخ ولا تستطيع أن تُكْمل حتى النهاية، أما الثانية فتَمْلك القدرةَ على تطوير أشكالِ عملٍ تتوافق مع المستجدّات. والحقّ أنّ «الشخصيات النموذجية» الشابة

موجودة، ولكنّها حالاتٌ فرديةٌ ومبعثرة نتمنى أن تتقاربَ لتطوير أشكال عمل مشتركة.

هشام: أعود إلى ناصر. هل لك، بوصفك عضوًا في مجلس شورى «جبهة العمل الإسلامي،» أن تعطينا رؤيَتَك إلى كيفية تعاطي الشباب مع الأحزاب بشكلٍ عام؟ وما هي آفاقُ تطوير هذه العلاقة؟

ناصر: التجربة الحزبية برمّتها ليست سليمةً في الأردن، وتعاني التهميشَ والتحجيمَ والاستهدافَ والملاحقة. ولهذا تأثيرٌ مزدوجٌ على الشباب: فالساعون إلى التغيير ملاحَقون في لقمة عيشهم. ولأنّ الشباب لا يستطيعون الاستغناءَ عن أساسيات حياتهم مقابلَ أن يَرْهنوا أنفسَهم لتجربة حزبية هي في الغالب من دون أفق، فإنّ وجودَهم في الأحزاب محدود. أَضِفْ إلى ذلك ما تعانيه الأحزابُ، في ظلّ حالة التردّي هذه، من بطءِ الحراك الداخلي، وغيابِ التداول داخلها (وهو انعكاسٌ للاستبداد الحكومي والاجتماعي الذي نعانيه)، الأمرُ الذي يحدّ أيضًا من دور الشباب فيها.

لكنّني أعتقد أنّ على الشباب ألاّ يستسلموا إلى الحالة الراهنة، بل أن يتمسّكوا بالكفاح من أجل تغيير ذي جدوى. واقترح، خدمةً لقضية مشاركة الشباب في الحياة السياسية، أن يتحالفوا في ما بينهم بالقفز عن الإيديولوجيا والمحدّدات الذاتية، والاتفاقِ على برنامج بسيط جداً: برنامج للحرية الإنسانية، برنامج يطالب بحقّ الشباب في الوجود ضمن دائرة الفعل، وبأن تتجاوزَ مؤسساتُ المجتمع منطقَ تسويقِ نفسها بالحديث المتكرّر عن «أهمية دور الشباب» دون أن تَدْفعَ بهم فعلاً إلى تصدُّر مواقع القرار. علينا، إذن، أن نَرْفض أن يتمّ الاتّكاءُ على قضية الشباب (والمرأة) بمجرّد تحصيل المكتسبات السياسية!

وهنا أنبِّه إلى أنّ المطالبات بإشراك الشباب سياسيّاً هي مسؤوليةُ الجميع: الأحزاب، والحكومة، ومن خلف ذلك، المجتمع برمّته. ومن غير المسوَّغ أن تتراشق الحكومةُ والأحزابُ المسؤوليةَ، وعلى الشباب الانتباهُ إلى ما تنطوي عليه لعبةُ التراشق هذه من خداع.

فراس: أوافق على أنّ القوى الأمنية تلاحق الناسَ، لكنْ ليس هذا **وحده** سببَ ضعف المشاركة السياسية. فمن المعروف أنّ القوى الأمنية كانت تلاحق الفاعلين الحزبيين على الدوام. ولو عدنا قليلاً إلى الستينيات والسبعينيات، وهي الفترة الأصعب، لوجدنا أنّ القوى الحزبية كانت فاعلةً في الجامعات وفي المجتمع عامةً. إذن، القمعُ لا يَمْنع الحركةَ، وإنْ حَدَّها وصَعَّبَها.

في رأيي أنّ التراجع في العمل الحزبي الأردني يَكْمن في الأحزاب ذاتها. فهذه الأحزاب قَدّمتْ نفسَها قبل عشرين أو ثلاثين عامًا بفكرٍ يتناسب مع تلك المرحلة، فاستطاعت أن تنظِّم الناسَ وأن تشاركَ في الحياة السياسية. ولكنّها استمرت في عقد صفقاتٍ مع السلطات للمحافظة على وجودها. وهذا أدّى إلى تلاشي الحركات الحزبية: ذلك أنّ الأحزاب الفاعلة هي التي تَظْهر برؤيةٍ تَلْمس الناسَ وصعوباتِهم الحقيقيةَ، ويكون لديْها أفقٌ سياسيٌّ يتماشى مع المطامح الموجودة في أذهانهم.

المشكلة الحقيقية في الأردن والوطن العربي، إذن، هي عدمُ تجديد الخطاب بما يتناسب مع المرحلة. لم يعد المشروعُ السياسي الذي نشأ من أجله الحزبُ هو محرِّكَه الأولَ، بل وجودُه السياسي بأيّ شكل وبأيّ صورة. ولذا دَخَلْنا في صفقات ومساومات مع الدولة والأحزاب الأخرى. والحال أنّه لا يُمْكن قيادةُ شعبٍ أو أمة، ولا جذبُ الشباب وتأمينُ مشاركتهم، بخطابٍ رثٍّ وانتهازيّ وخطابِ مساوماتٍ وصفقات، بل بخطابٍ تغييري لمجتمعاتٍ تريد النهوض!

ناصر: قد أعترض على مسألة إرجاع اللوم إلى الأحزاب. فالأحزاب لا تمتلك أدواتِ الاتصال مع الجماهير، وهي محاصَرَةٌ سياسيّاً وأمنيّاً وماليّاً. وقصةُ «الخطاب الرثّ وعقم السياسات والبرامج» سيمفونيةٌ حكوميةٌ، إذ لدينا فعلاً ما يُمْكن أن نقدِّمه ليكون ملامسًا لهموم الجماهير، لكنّنا نُمْنع حتى من مخاطبة نطاقاتٍ ضيقةٍ منها. أعتقد أنّه لو كان هناك جوٌّ دافعٌ إلى العمل السياسي، فقد تَخْتفي كلّ الظواهرالتي يتحدّث عنها فراس. أما في الظرف الحالي فلو أَحضرتَ البرامجَ الممتازةَ

المتظاهرون في الرابية ضدّ سفارة العدوّ الصهيوني عاميْ ٢٠٠٠ و٢٠٠٢ هم أنفسُهم الذين نزلوا إلى الشارع عندما فازت ديانا كرزون في «السوبر ستار»!

والخطبَ غيرَ الرثّة التي تلامِس همومَ الجماهير، فستكون الحملةُ أشرسَ، وبذلك نَحْصل على النتيجة نفسها، أو ربّما ننكفئ إحباطًا!

فراس: ولكنْ، عندها، ستكون هناك مواجهةٌ لهذا الحملة!

بكر: الخطاب السابق كان إعلاميّاً، والعمل الذي مورس في كثير من الأطر الموجودة جلُّه إعلاميٌّ وأحيانًا استعراضي، في حين سقطتْ أنظمةٌ كانت تحمل مشاريعَ أكبر بكثيرٍ من إمكانياتنا. التساؤل الموجود عند الشباب هو: هل العمل الحزبي مُجْدٍ؟ قناعتهم أنّه غيرُ مُجدٍ. ويصبح السؤال هو: ما هي إمكانية كسر النظرة السلبية عند الشباب تجاه الحالة الموجودة؟

ناصر: إذا لم يكن هناك جوٌّ صحيٌّ قادرٌ على استخلاص التجربة السليمة وترشيدِها، فسوف تبقى كلُّ هذه المسائل في الإطار النظري.

بكر: ومَنْ يخلق هذا الجوَّ الصحي؟

ناصر: هناك عدّةُ عوامل، أهمُّها إيصالُ النظام السياسي إلى الاعتراف بمشروعية وجود الجميع في إطارالتخطيط ورسم مستقبلِ الأمة. أما إذا وَقَفْنا عند فكرةِ أنّ هناك قوًى محليةً وعالميةً تجابه التغييرَ، فإنّ كلَّ البرامج التي نتحدث عنها سوف تقف عاجزةً، وسيَكْفر الشبابُ بكلّ المشهد لأنّهم سيكتشفون أنّهم يتعاملون مع تمثيليةٍ محدودةِ الأسقف. وبالتالي، حتى لو جئنا بالجديد من برامج ومبادرات، فسنكتشف الحقيقةَ المرَّةَ التي تقول بأنّنا محاصَرون إلى درجة اغتيال الأحلام.

بكر: أنتَ انطلقتَ من مسألةٍ أخالفُكَ فيها الرأيَ تمامًا، وهي أنّك تراهن على أن يكون النظامُ هو مَنْ يغيِّر هذا الواقع المترديّ. ولكنْ، عمليّاً، النظامُ يرمي بنفسه في الحضن الأميركي! هنا تَظْهر مهمةُ الناس المتمسكين بموروثهم العربي والإسلامي، والحاملين للهمّ الوطني والفكري في تطوير أشكال العمل.

ناصر: أنا أطالب بأن تكون الأولويةُ لعملية تغيير حقيقي، لا لعملية بحث في البرامج. فإذا ناضلنا من أجل تداوُلٍ سلمي للسلطة ومشاركة الجميع، فإنّ هذا النضال بطبيعته قادرٌ على إيجاد البرامج الإبداعية التي تتماهى مع أماني الناس في امتلاك الإرادة الحقيقية للنهوض الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

فراس: كيف يُمْكن التغيير؟ هل نَنْتظر من السلطة أن تغيِّر نفسَها؟ هذا لن يَحْصل لأنّها في أحسن حالةٍ ممكنة، إذ لا توجد ممانعةٌ قويةٌ في وجهها!

نحن نتحدّث عن خلق أطر قد تكون من نمط الأحزاب التقليدية أو من نمط حركة «كفاية» في مصر. الشكل لا يهمّ. المهمّ ألاّ نَبْحث عن قيادات، بل عن حركات ذات ناظم فكري وأفق سياسي وامتداد على الأرض. لن يأتي التغييرُ بوحي [خارجيّ]: فقد رأينا التغييرَ الأميركي في العراق، وهذا ما لا نريده.

توجد الآن لحظةٌ تاريخيةٌ للتغيير. فإذا لم نستغلَّها، أيْ إذا لم نوجِد إطارًا يَلْحق به الشارعُ، فكيف سنحرّك الشارع؟ وكيف ستكون الأمور؟

شبابٌ واحد، أمْ شبابان؟

هشام: ما يُبثّ على الفضائيات اليوم، من ڤيديو كليب وإعلانات و«تشات» وترويج لأنساق معينة في الحياة واللباس والشكل، وإقحام لوعي يريد إعادةَ إنتاج المستهلِكِ الكوني الموحَّد، كلّ ذلك يَسْتَهدف الشباب. فكيف يتعاملون معه؟

فراس: هناك أنماط من الثقافة الاستهلاكية تهيمن على الشباب في العالم كلّه. الإشكال الحقيقي عندنا هو انخفاضُ المستوى الثقافي، وانعدامُ الوعي الوطني عند الشباب. فإذا نَظَرْنا إلى المجتمع الأردني، وجدنا أنّ الكهول يهيمنون على الحياة السياسية، في حين أنّ الشباب خارجها. أما على المستوى الأكاديمي، فإنّنا نمتاز بأعلى نِسَبٍ من خرّيجي الجامعات، وبكفاءاتٍ عاليةٍ في سوق العمل، ولكنْ لا براءاتُ اختراعٍ عندنا ولا أبحاثٌ علمية.

إضافةً إلى ذلك، ثمة مشكلة موجودة تاريخيّاً في الأردن، وهي الإقليمية التي أخذتْ في الآونة الاخيرة شكلاً خطيرًا، ويعاد إنتاجُها في لبنان والعراق، وربما سوريا أيضًا، بأشكال طائفية وعرقية ومذهبية. ثمة، إذن، منهجية حقيقية لتوجيه الشباب في اتجاه معيَّن...

هشام: أيْ تحويلهم إلى مشجِّعي «فيصلي» و«وحدات...»[1]

ناصر: أعتقد أنّ الشعب الأردني مثقف ومنتمٍ، وعلى وجه الخصوص الجيل الصاعد منه. وهناك الكثير من المحطّات التي تجلّت فيها قدرةُ هؤلاء على التضحية والعطاء وبما يتجاوز الخيال. أنا مطمئنّ إلى أنّ الشباب في هذه الأمة يَمْتلك رصيدًا سيكون له أثرُه الإيجابي في يوم قريب. والذي يتحمّل مسؤوليةَ تحريك هذا المارد الذي يَسْكن هذا الجيلَ هو البطلُ الذي سيعلِّق الجرسَ.

هشام: أنت لازلتَ تراهن على «البطل ـ الفرد» أو «البطل ـ التنظيم»؟

ناصر: أنا أراهن على أنّ هذه الأمة خلاّقة. قد يكون البطلُ طليعةً تَحْمل فكرةً: فكرةً من نوع مقاومة الاستغلال الاستعماري، أو مقاومة النفوذ الصهيوني، أو مقاومة النمط الاستهلاكي، أو العولمة. إنّ هناك فرصًا حقيقيةً لاستيقاظ المارد.

هشام: في هذا السياق، كيف نفسِّر وجودَ الوعي والانتماء ووجودَ نقيضهما في آن معًا؟ فراس تحدّث عن غياب الوعي وطغيان النمط الاستهلاكي على الكتلة العامة من الشباب، ولهذا سأقوم بطرح مثالَيْن متناقضيْن: فالمتظاهرون في الرابية ضدّ سفارة العدوّ الصهيوني عاميْ ٢٠٠٠ و٢٠٠٢ هم أنفسُهم الذين نزلوا إلى الشارع عندما فازت ديانا كرزون في «السوبر ستار»!

بكر: هي «الفَزْعة» ذاتُها في التعبير عن ردّة الفعل بمعزلٍ عن الحدث والظرف. المرحلة اختلفت. في الخمسينيات والستينيات وحتى السبعينيات، كان هناك مدٌّ جماهيريّ؛ أما الآن فلم يَعُدْ المدُّ الجماهيري موجودًا. جيلُ العقود السابقة عاش شيئًا من النصر العربي، أو حَمَلَ حالةً حماسيةً ما أو مشروعًا من نوع معيَّن. أما اليوم فهناك حالةٌ من الجَزْر الجماهيري، والشابُّ لا يُشْحن بالسياسة بل باستهلاكيةِ الفضائيات.

ثم إنّ كفاءة الخرّيج الجامعي سابقًا مختلفةٌ عن كفاءته حاليّاً. ففي ما مضى كان عليه أن يحصل على معدلٍ عالٍ في التوجيهي حتى يتأهّل لدخول الجامعة، أما الآن فهناك جامعاتٌ خاصةٌ تَقْبل بالمعدّلات المتدنِّية. ومواصفات هذا الطالب وإمكانياته العلمية والأكاديمية متواضعة. وبمعزلٍ عن مدى نجاحه في تخصُّصه الدراسي أو العلمي، فإنّ الآفاق التي يَمْتلكها محدودةٌ بحكم طبيعة اهتماماته المحدودة. ومن ثم يَنْعدم النضوجُ الفكري. طبعًا هذا لا يلغي وجودَ مثقفين غير «متعلّمين» بالمفهوم الأكاديمي.

وهناك أيضًا قضيةُ تغيير المناهج والبرامج المموّلة أميركيّاً في المدارس والجامعات. تخيَّلْ مواصفاتِ طفل اليوم الذي سوف ينشأ ليصبح شاباً. الجيل القادم متأثِّر بالعولمة وإفرازاتها...

ناصر: تَقْصد جيلَ الانتفاضة...

بكر: لا أبدًا. فنحن نُكْبر إخوانَنا الموجودين في فلسطين والعراق. إنّهم حرّاسُ وجدانِ هذه الأمة.

ناصر: إذًا، هذه هي المنهجيةُ الحقيقيةُ التي تَبْني هذا الجيل. إنّه جيلُ معاناةٍ حقيقيةٍ رافضٌ لحالة الانهزام التي تعيشها الأمة.

١ ـ الفيصلي والوحدات: أهم فريقين لكرة القدم في الأردن، وهما يعبِّران عن القسمة الإقليمية المفتعلة في البلد («أردني»/«فلسطيني») ويجيِّشان الجماهيرَ في هذا الاتجاه تحت عيون السلطة المغمضة عنهما، وبحيث يتمّ التسامحُ مع هتافاتٍ شديدةِ الإهانة من الطرفيْن في مبارياتهما، حتى إنّه لو تحدّث شخصٌ بمثلها في الشارع لسُجِن فورًا! [هشام]

حين أرى الأطفال يلعبون لعبةَ الانتفاضة أقول إنّه لا بدّ أن يأتي اليوم القريب الذي يَمْتلك فيه الشبابُ زمامَ المبادرة.

هشام: لكنْ في مقابل هؤلاء الشباب هناك شباب آخرون. إذ لا توجد ساحاتُ مقاومة حقيقية في الوطن العربي إلاّ في موضعيْن أو ثلاثة من أصل ٢٢ ساحة أخرى.

ناصر: المسألة لا تتعلّق بالمقاومة بالسلاح فقط ! فأنا في الأردن، مثلاً، أقاوم وأتبنّى المقاومة في العراق وفلسطين وأدافع عنها، وهناك تقاطعاتٌ هائلةٌ بين الإنسان الأردني والفلسطيني والعراقي واللبناني. أنا، كمعلم، حين أرى الأطفالَ في المدرسة يلعبون لعبةَ الانتفاضة، أعرف الهاجسَ الحقيقي في داخلهم، هاجسَ البحث عن النصر الغائب والعزّة المفقودة، فأشعر بالتفاؤل، وأقول إنّه لا بدّ أن يأتي اليومُ القريبُ الذي يَمْتلك فيه الشبابُ زمامَ المبادرة ويَنْطلقون إلى حالةِ تغييرٍ حقيقي. المستقبل لنا، لشباب هذه الامة.

أما بشأن «الفزعة،» فأنا أعتقد أنّ همَّ الإنسان الأردني والعربي هو هَمُّ الوجود، وهَمُّ الانتصار، وهَمُّ أن يكون له موقعٌ كريمٌ في هذا العالم. نحن محاصَرون في مسألة الخروج إلى الشارع والتعبير الجماهيري، لكنْ هل استمعتم إلى شبابنا في الإذاعة المدرسية، أو رأيتم كتاباتِهم ورسومَهم بل وخربشاتِهم على الجدران؟ كلّ هذه المسائل تَعْكس حالةَ نهوض يبدو لي أنّها ستترجَمُ، في القريب العاجل، إلى تغيير حقيقي. والبوادر موجودة الآن. فمَنْ كان مثلاً يتوقّع أن يقاوم العراقيون هذه المقاومةَ الباسلةَ وبهذه السرعة؟

بكر: أخ ناصر، حتى لا نَغْرق في الجمل اللفظية حتى النهاية، أقول إنّنا لا نمارسُ حتى أبسطَ ما يُمْكن أن يمارَسَ. فعندما تكون هناك ظروفٌ تتطلّب موقفًا، تأتي الاستجابةُ على شكل «فزعةٍ» تنتهي بانتهاء الظرف أو الحدث! إنّ الظرف يتطلّب برامجَ واضحةً واستنهاضًا حقيقيّاً، ولكنّنا نحاول تخفيفَ وطأة الضغوط بالكلام!

فراس: في بداية حديثي أشرتُ إلى وجود حالة تردٍّ في الممارسة، لا في المزاج. وأريد أن أوضح الآن فكرةَ المزاج العامّ في الوطن العربي، وخاصةً في الموقف من القضايا الرئيسية: فلسطين والاحتلال الصهيوني والاحتلال الأميركي في العراق. الموقف الشعبي من هذه القضايا لم يتغيرْ، وظلّ رافضًا للتطبيع مع العدو الصهيوني منذ عام ٩٤ [توقيع اتفاقية وادي عَرَبة] وحتى الآن، وسيظلّ بعد ألفِ عام. والشعب المصري رافضٌ لكامپ دايڤيد ويقاطع العدوَّ الصهيوني، باستثناء حالاتٍ فرديةٍ نادرة. أما على مستوى النظام، فهناك تردّ في الممارسة في ما يتعلّق بالعمل الشعبي، وخاصةً مع الشباب ــ الملفّ الأخطر في الأردن. خمسُ حكومات متعاقبة ولم يتغيّر وزيرُ التربية والتعليم. سياساتُ الدولة تتغيّر، لكنّ سياساتِ التربية والتعليم لا تتغير...

ناصر: (مقاطعًا) هل هذا صحيح أو خاطئ؟

فراس: السؤال هو: ما هي هذه السياسة التي لا تتغيّر؟ عندما يكون هناك سياقٌ وطني حقيقي، فإنّنا نتحدّث إذّ ذاك عن صحته أو خطإه. أما الآن فالأمور تسير في سياقٍ غيرِ وطني أو قومي.

ناصر: هذه اتهام، ولا توجد دلائل.

فراس: بل توجد دلائل إذا نَظَرْنا إلى الطريقة المنهجية في التعامل مع الشباب. المدارس الحكومية أصبحتْ بقعةً للهمالة وللبعد عن كلّ القضايا. إنّ هناك شغلاً حقيقيّاً منهجيّاً من طرف الدولة لتهميش دور الشباب في المجتمع. الدولة أبوية منذ تأسستْ، وفي دولة الرعاية الأبوية أنتَ لا تنتخب، ورئيسُ الوزراء يعيَّن، ومجلسُ الطلبة نصفُه معيَّن.

أعود إلى ما كنتُ أقوله: توجد ممارسةٌ سلبيةٌ تؤدّي إلى التردّي، ولكنْ لا يوجد مزاجٌ عامّ سلبي متواطئ مع هذا المشروع. ولهذا السبب يشير هشام إلى وجود ظواهر شبابية غير مفهومة. هناك تردٍّ في الثقافة والوعي السياسي عند الشباب حتى على المستوى الاجتماعي، ولكنْ عند المفاصل التاريخية سوف تجد الشعبَ والأمةَ كلَّها من خلفك إنْ أنتَ أردتَ أن تقود الصراعَ بشكل حقيقي. ففي داخل فلسطين انتخَبَ الشعبُ الفلسطيني حركةَ حماس، أي اتَّخَذَ قرارًا

بالقتال بعد ستين عامًا، في حين أنّ السياسيين يزعمون أنّ الشعب الفلسطيني مَلَّ القتالَ ويريد الخلاصَ بأيّ طريقة.

هشام: ناصر، أنت اعترضتَ على أنّ هناك تخريبًا منهجيّاً حتى في وزارة التربية والتعليم. ولكنّنا نَعْلم أنّ هناك مشاريعَ أميركيةً، وأنّ برنامج «إنجاز» في المدارس والجامعات يموَّل من الـ USAID [الوكالة الأميركية للتنمية الدولية]، وهناك خبراء أميركيون في وزارة التربية والتعليم، و....

ناصر: ...لا أنفي أنّ هناك تغيُّرًا في المناهج، وإنْ كنتُ لا أستطيع أن أعمِّم فأصفَه بأنَّه عمليةُ تخريب. أنا أدرس الآن في مرحلة الدكتوراه في التربية، واطّلعتُ على سياسات التربية والتعليم، وأعرف القائمين عليها. ثمة تغييرٌ في المناهج فعلاً، ربما يَهْدف إلى تلويث الوعي.

غير أنّني ألفتُ إلى أنّ ثمة شبابًا تتشكّل أفكارُهم وأمزجتُهم جرّاء عوامل عديدة، منها الواقعُ الذي نعايش. خذْ مثلاً ما يشاهدونه يوميّاً على محطّات التلفزة من مظاهر الإذلال في فلسطين والعراق، وكيف يقابلها المقاومون. لقد غدا تأثيرُ طفل الانتفاضة الحاملِ للحجر (والذي يُطلّ علينا من خلال الصورة المؤثِّرة) أقوى من تأثير الأستاذِ الحاملِ للطبشورة (والذي يلاحقنا في سجنٍ اسمُه المدرسة).

ثم إنّي أحبّ أن أشير إلى مسألة أخرى. فمطالبتُنا بإشراك الشباب في الحياة السياسية ينبغي ألاّ تَعْني الفئةَ العُمْرية فحسب. ففي نظامنا السياسي كثيرٌ من الشباب، غير أنّنا نبحث عن شباب مؤمنين بفسح المجال أمام الجيل لممارسة حقّه في الحرية الإنسانية والمشاركة في القرار ـ لا الشباب الذين ارتضَوْا أن يكونوا توابعَ يَرْكبون الموجةَ ويُسْهمون في تأخير حالة النهوض. من السهولة بمكان أن **نزيِّن** المشهدَ بمجموعة من الشباب الذين يُمْكن أن يُسْهموا في تغييب وعي الشعب وإطالة عمر الاستبداد والاستغلال.

هشام: تَقْصد شبابَ «مشروع الأمة،» مقابلَ شباب «مشروع النقيض»؟

ناصر: لا شكّ في ذلك. فنحن نَبْحث عن شباب يقوم بدورٍ نحو هذه الأمة ونحو عملية التغيير الحقيقي فيها. إنّنا نبحثُ عن المشاركة السياسية الواعية لجميع الفئات، دون عملياتِ إقصاءٍ أو تحجيمٍ لأيّ طرف من الأطراف.

المخيّم

هشام: أريد أن أعرِّج على موضوع المخيّم ضمن هذه السياقات. فالمخيَّم حالةٌ خاصّةٌ، ويُفترض أنّها ملتحمةٌ مع الحالة الفلسطينية. فماذا عن شباب المخيّم يا بكر؟

بكر: مخيمّ البقعة قد يمثّل الحالةَ الحقيقيةَ للاجئين الفلسطينيين في الشتات لكونه أكبرَ مخيم، وما زال يَحْمل خصوصيتَه كمخيم، وكان باستمرار حاضرًا في الأنشطة الوطنية. ولكنْ يبدو أنّ الأجهزة الأمنية أَدركتْ خطورةَ الحالة المتقدِّمة فيه، فعَملتْ على إسقاطِ أو استقطابِ جزءٍ ممّن كانوا يتصدّرون الصفوفَ الأولى في العمل فيه. ومثالُ ذلك إحدى أهمّ المؤسسات في المخيم التي انخرط الشبابُ في أنشطتها المختلفة الثقافية والرياضية والاجتماعية، وكان أداؤها لافتًا على مستوى البلد. فمنذ أواسط التسعينيات ذهبتْ حالةُ التميز السابقة، وأصبح العملُ الرياضي هو شاغلَه الأساسي!

فمثلاً يَبْلغ مصروفُ الفريق الرياضي لتلك المؤسسة ما يزيد عن ربع مليون دينار في الموسم الواحد. وحين كنّا نتقدّم بمشروع أسبوع ثقافي عن فلسطين، يَشْمل ندواتٍ وفرقًا غنائيةً ملتزمةً ومعرضَ كتاب ومعرضًا تشكيليّاً وفعالياتٍ أخرى، كنّا نُضطرّ إلى تقليص الميزانية. وأذكر أنّنا في المرة الأخيرة قلّصنا الميزانيةَ لغاية ٧٠٠ دينار. ومع ذلك لم يُنْجَز المشروعُ بداعي «الوضع المالي،» وأحيانًا بداعي «عدم الحصول على موافقات أمنية.»

إذن، لم يعد للعمل الثقافي والاجتماعي في المخيّم أيُّ دعم، ولم تَعُدْ فيه تلك الأطُر أو الفصائلُ الفلسطينية التي كانت تَحْمل برامجَ ترتكز على العمل الاجتماعي والثقافي. واستُبْدل ذلك كلُّه بالعمل الرياضي...

هناك انخفاض شديد في المشاركة السياسية العامة في الأردن، وهو يزداد في ما يتعلّق بالشباب، ويزداد أكثرَ فأكثرَ حين يتعلّق الأمرُ بالشابات.

هشام:... وهو العمل الذي تستطيع من خلاله التنفيسَ عن الناس وحَرْفَ طاقاتهم باتجاه آخر.

بكر: أعتقد أنّه العمل الذي من خلاله تستطيع بعضُ الشخصيات «القيادية» في المخيم أن تبقى تحت الأضواء؛ ذلك لأنّ عملها قد أصبح ـ للأسف ـ عملاً استعراضيّاً للّعبِ بحساباتٍ لا أودّ الخوضَ فيها!

الشابّات والمشاركة السياسية

هشام: ماذا عن الشابّات؟ هل يشارِكْنَ بشكل حقيقيّ؟ إنّنا لا نراهُنّ كثيرًا في معترك العمل السياسيِ، أو هنّ لسن بارزاتٍ فيه. صحيح أنّ هناك حالات قليلة، ولكنّها تؤكّد القاعدة: فـ «جبهة العمل الإسلامي» عندها نائبٌ واحد من النساء هي السيدة حياة المسيمي. ولدينا أيضًا مثالا توجان فيصل والمرحومة عايدة الدبّاس. كما يتمّ تقديمُ نموذجيْن للمرأة: نموذج البنات ذوات الماكياج والخاضعات لعمليات التجميل، وهذا هو الذي يسوَّق الآن على الفضائيات كنموذج للمرأة العصرية المتحرِّرة؛ ونموذج الاستشهاديات والمناضلات في العراق وفلسطين ولبنان.

ناصر: يبدو لي إنّ هناك انخفاضًا شديدًا في المشاركة السياسية العامة في الأردن، وهو يزداد في ما يتعلّق بالشباب، ويزداد أكثرَ فأكثرَ حين يتعلّق الأمرُ بالشابات. أضِفْ إلى ذلك ما تعانيه المرأةُ من العوائق الاجتماعية التي تجعل مشاركتَها محدودةً.

فراس: قد تكون وجهةُ نظري غريبةً في هذه القضية. فأنا أعتقد أنّ ما يقال عن القمع الذي يمارسه المجتمعُ العربي على المرأة ليس بالشكلِ الذي يتمّ التسويقُ له أو عرضُه، وكأنّ المجتمع العربي يَقْمع المرأةَ بطريقة استثنائية تَفُوق المجتمعاتِ الأخرى. فالحقّ أنّ هذه الظاهرة موجودةٌ في المجتمع الذكوري في العالم كلِّه، وهي تحتاج إلى إضاءةٍ ونقد. لكنْ في المجتمع العربي والثقافة العربية، وفي التاريخ العربي، لا توجد عندنا هذه المشكلة بالحدّة أو بالشكل اللذيْن تُعْرض بهما الآن!

ثم إنّه ليس صحيحًا أنّ التيارات الإسلامية مثلاً تحدّ من مشاركة المرأة في العمل السياسي، إذ قدّمتْ هذه التياراتُ العديدَ من القيادات النسائية في البرلمان والنقابات والحركات الطلابية ـ وهو المستوى الذي لم يرقَ إليه العديدُ من القوى اليسارية.

بكر: كثير من النساء والفتيات الموجودات في سياق واقعنا البائس يَنْسَقْنَ وراء الفهم الاستهلاكي أو الفهم الغربي بشكل عامّ. وأعتقد، في المقابل، أنّ لدينا نساءً باسلاتٍ يَمْلكن القدرةَ على الاستمرار إلى النهاية، وتَنْطبق عليهنّ مواصفاتُ المرأة المنتجة والملتزمة. فلا أتصوّر أنّ المرأة مختلفة عن الرجل، أو الشابّ عن الشابة، في هذا الفهم في ظلّ حجم التغريب الممارَس. ولكنْ أتصوّر أنّ بقاء الشابة والشاب الملتزميْن بالهمّ الوطني أمرٌ ممكن.

ما العمل؟

هشام: بالمختصر المفيد، ما العمل؟

فراس: في المحصّلة العامة لا نستطيع رؤيةَ الحالة الشبابية دون رؤية الحالة العامة الإقليمية والدولية الاجتماعية والثقافية، والتدخّلات السياسية لكلّ القوى في المنطقة. ما المطلوب؟ لن يَنْهض دورُ الشباب إلاّ في حالة نهوض حركات سياسية لتحريكهم وتوجيه طاقاتهم. نريد شكلاً جديدًا، لا أن نَبْحث عن أشكال قديمة أُنتجتْ في مرحلةٍ ما وفشلتْ، وربما كان شكلُها وآليّاتُ عملها هي سببَ فشلها، أو أنّ المرحلة هي التي دفعتْ بها إلى الفشل.

الآن نحن أمام لحظة تاريخية حاسمة ستؤثّر في مستقبل المنطقة ككلّ. فلا بدّ من استغلال الطاقات لأنّ المزاج العامّ يتوجّه نحو الأمة، بالرغم من التردّي. يجب أن تقوم تحركاتٌ سياسيةٌ شعبية ذاتُ أفق سياسي واجتماعي، وعليها أن تَعْمل على تحسين حياة الناس ولمس حاجاتهم. وبدون ظهور هذه الحركات، فإنّ العامل الذاتي لا يُمْكن الاعتمادُ عليه.

ناصر: أعتقد أنّ الديموقراطية الحقيقية ستقدّم الشبابَ. فرئيسُ وزراء فلسطين الآن شابٌ عمرُه ٤٢ عامًا، وقدَّمْته تجربةٌ من أكثر التجارب نزاهةً وشفافيةً. وأعتقد أنّ التغييرات العالمية والإقليمية سوف تَدْفع بفرص جديدة إلى الشباب في القريب العاجل في منطقتنا العربية، وفي الأردن على الوجه الأخصّ.

لكنْ على الشابّ عدمُ انتظار المخلِّص، بل بناءُ أطر مشتركة خارج منطق الإيديولوجيا والحزبية والذاتية. مثالُ ذلك حركة «كفاية» التي جَمَعت اليساريَّ والإسلاميَّ والقوميَّ على هدف محدد وصغير حقّقوا الكثيرَ من خلاله؛ وهذا نموذج يُمْكن أن يُحتذى، خصوصًا أنّ التجربة الحزبية المريرة أصبحتْ منفِّرة، ولم تَعُد الواجباتُ الحزبيةُ مجديةً في استقطاب الشباب إلى حين تغيُّر القانون أو النهج السياسي في الأردن. نحن نَطْمح إلى إطارٍ لا تكون فيه «نواةٌ خلفية» تدير عملَ «القطيع.» إذا خَلَصْنا إلى ضرورة أن يكون الشبابُ في مقدِّمة مسيرة التغيير، فسوف نتجاوز معظمَ خلافاتنا الحزبية، وعندها نستطيع أن نقول إنّنا سوف ننجز ونتقدّم.

بكر: الشباب الذي يَمْلك الرغبةَ في العطاء موجودٌ، ولكنْ يجب أن تتوفّر الرغبةُ في تجاوز الحالة الذاتية التي وقع بعضُ أصحاب التجارب السابقة فيها... على أمل أن تتشكّل حالةٌ من الانسجام بين الشباب بمعزلٍ عن مرجعياتهم وتوجّهاتهم الفكرية.

ناصر: أريد أن أبسِّط الفكرة. صحيح أنّنا نتّفق على أنّنا في معسكرٍ مناهضٍ للاستبداد والاستعمار، ولكنّنا نَهْدف إلى إتاحة الفرصة أمام الشباب للمشاركة السياسية في الأردن، بغضّ النظر عن وجود فئات شبابية تصنِّف نفسَها مع السياسة الحكومية. لا نريد أن نبحث عن مواقع الاختلاف، بل عن مواضع التوافق: فنحن متوافقون مثلاً على أهمية وجودنا في المشهد السياسي كشباب، وعلى ضرورة تغيير المادة في قانون الانتخاب التي لا تَسْمح لمن هم أقلُّ من ثلاثين عامًا بالترشّح إلى مجلس النواب؛ ونريد تغييرَ بعض الموادّ الأخرى في ذلك القانون بما يَضْمن مشاركةَ الشباب في المؤسسات الحزبية ووجودَهم على لوائح هذه الأحزاب الانتخابية. وهكذا.

أعتقد أنّ عملنا قد ينجح في هذه المرحلة، وفي الأردن بالذات، إذا وُجِدَ توافقٌ حقيقي شفّاف خارج إطار هيمنة بعض الجهات والمحاصصة غير المنطقية.

فراس: أتمنّى أن يكون هناك توجُّهٌ حقيقي، أو فتحٌ للباب أمام هذا التوجُّه!

ناصر: مَنْ تنتظر ليفتحَ الباب؟!

فراس: أنت تقول بأنّك تنتظر النظام، لكنّ بنيةَ النظام لن تَسْمح بذلك. التغيير لا يأتي من القمة، بل من القاعدة. هذه قناعتي، وقد تكون قابلةً للنقاش. والقول بأنّ هناك هجمةً أكبر من البشر غيرُ صحيح. فهناك مشهدٌ بسيطٌ، وهو العراق الصامد أمام أكبر قوة عسكرية في العالم. إنّ الشعوب هي التي تقوم بالتغيير، بغضّ النظر عن الواقع. بل لم يَحْدث التغييرُ إلاّ عندما كان الناسُ في أسوإ حالاتهم!

بكر: العراق وفلسطين ساحتا معركة، وبالتالي هناك ما يستثير الشابَّ ويَدْفعه إلى المشاركة. ولكنّنا في الأردن لسنا في ساحة معركة، ومن ثم فإنّ الدور الأساسي هو الذي لا بدّ أن تَطْلع به نخبةٌ أو طليعةٌ تعطي وتقدِّم وتكون المؤتمَنَةَ على العمل والبرنامج.

عمان

ناصر لافي

ناشط إسلامي شابّ، وعضو مجلس شورى «جبهة العمل الإسلامي.»

فراس محادين

ناشط يساري قومي شابّ مستقلّ.

بكر الأخرس

ناشط شابّ مستقلّ، من مخيّم البقعة.